10 تناصح وتغافر

والله، إن أمر قرآننا لكما أقسم الله:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق:١٣].

دور فصل جاد، أراده الله تعالى للقرآن.

وسيرة مفاصلة جادة، ليس معها هزل، فرضت تبعا لذلك على من يختار الانتساب إلى سرايا رجال القرآن.

وجد مقابل ليس بمستغرب، ما زال يتداعى إليه الباطل، حفاظًا على نفسه، ودفاعا عن مصالحه، يرد به على جدنا.

وإذا بأمر دعوة الإسلام كله جد أنى نظرته، لا يستطيع فيها الداعية المسلم أن يتمنى أمنية من أماني الهزل، ولا تنبغي له، وإلا فقدَ الثبات، وتدحرج أمام الجد الهادر السائر.

نرى الدهر قد جد في أمرنا فيا ويل تدبيرنا إن هزل

وهذا ما يلقى على عاتق كل جيل من الدعاة، يشرفه الله –تعالى– في بداية كل مرحلة متميزة من مراحل المعركة المستمرة عبر القرون، بواجبٍ من التربية الصعبة، وسمتا من التشدد في الاختيار، يكفل بهما تقاء المجموعة وتماسك البناء.

إذا اختل شيئا بناء الأساس تضاعف في الصرح ذاك الخلل

وإنما ثمن هذا الأساس المتين أن يرفع الدعاة القواعد من التنظيم بشمول محيط وميزان، وأن يرمموا ما استهلكته الشبهات حين كانت تمر في ثنايا الأيام.

فلابد من رأب كل الصدوع وجمع الصفوف، ودرء العلل
ولابد من قصد ذات الإله وحشد القوى، ليصح العمل[1]

ومعنى ذلك: أن نلجأ دوما إلى تربية تسلك بنا في مسارين دائمين، وخطين متكاملين:

مسار التجرد الإيماني، ونيل الرضا الرباني، باطِّراح شهوة النفس، وتعليم تمييز الإلقاء الشيطاني، من خلال تأسيس تكتل ينوي عملا حركيا فكريًّا سياسيًّا، يتجاوز أشكال التعاون الاجتماعي الخيري.

ومسار الاستدراك بعلاج ما هنالك من عيب طرأ بعد صحة، أو نقص فضح المنظر بعد كمال، من خلاف، أو تخليط أو سير بلا تحديد تخطيط. وأنوار الفطنة التي أضاء منها أول ما أضاء نور الاستعاذة بالله من الفتن، هي أنوار أوقدت لتنير مراحل من كلٍّ من هذين المسارين، فهي تؤنس المؤسس الرائد، كما تهدي العاثر المنيب.

فالعائذ بالله المستغفر يتوغل في دربه على ضوء:

النور الثاني، وهو: تنقية النية مما علق بها من شوائب

نور أناره خالد رضي الله عنه يوم احتدمت اليرموك، فقال:

(إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده)[2].

ونقول بالذي قال:

(إن أيامنا هذه التي نصاول فيها جاهلية القرن العشرين لاستئناف الحياة الإسلامية إنما هي من أيام الله التي لها ما بعدها، فإنه لا ينبغي للداعية

(١) هذه الأبيات الأربعة للأميري في ألوان طيف/ ٩٩. (٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٥.

أن تجره فتنة إلى فخر وتطاول على أصحابه، ولا إلى بغي وعـدوان عـلى ذي إمرة قد بويع.

إخلاصا يتجاوز معناه الوعظي العابر الذي تلوكه ألسن القـصاص، إلى تأمل استقرائي صامت، يحصي ما جنته النيات المشوبة الممزجة من موبقـات وكبائر أضرت بسير الحركة الإسلامية الحاضرة، وهزته وأرادت لـه الحيـدة عن خطة المستقيم، لولا أن الله عصم القادة، ومن عليهم بثبات وسكينة.

من أجل ذلك أوصى فقه الدعوة: أن من لم يتعظ فيسارع إلى تنقيـة نيتـه سارعنا نحن إلى تنقية الجماعة منه.

بها جزم الإمام البنا فقال:

(إن الإخلاص أساس النجاح، وإن الله بيده الأمـر كلـه، وإن أسـلافكم الكرام لم ينتـصروا إلا بقـوة إيمانهـم وطهـارة أرواحهـم، وذكـاء نفوسـهم وإخلاص قلوبهم، وعملهم عن عقيدة واقتناع جعلوا كل شيء وقفا عليها، حتى اختلطت نفوسهم بعقيدتهم، وعقيدتهم بنفوسهم، فكانوا هم الفكرة، وكانت الفكرة إيـاهم، فـإن كنـتم كـذلك ففكـروا، والله يلهمكـم الرشـد والسداد، واعملوا، والله يؤيديكم بالمقدرة والنجاح، وإن كان فيكم مـريض بالقلب، معلول الغايـة، مـستور المطـامع، مجـروح المـاضي، فـأخرجوه مـن بينكم، فإنه حاجز للرحمة، حائل دون التوفيق) [1].

انظر قوله: إنه حاجز للرحمة. ودقق في تاريخنـا القريـب: كـم مـن قـصة وواقعة لها لسان يتهم الشرط المتساهل في التجميع بحجـز أشـكال الرحمـة المتعددة، من نصر و تمكين، وسكينة وطمأنينة، ووحدة ووفاق؟

(1) مجلة (الدعوة) عدد ٥٠.

إن الكثير من عثرات السير مردها إلى أهل الشوائب الذين احتضنتهم الجماعة على سذاجة منها، وفي غفلة من نفسها.

وقديما قال ابن الجوزي صادقا:

(إنما يتعثر من لم يخلص) [1].

وهو وإن كان يعني بذلك الفرد، إلا أن للمجموعة أيضًا قلبا واحدا مشتركًا يضره مرض البضعة الصغيرة منه كما يضر مرض بعض قلب الفرد ذاك الفرد، فإذا مرض داعية برياء تضررت جماعة الدعاة كلها بمرضه، وتعثرت ومرض قلبها، حتى يتخلص منه بتوبة، أو تتخلص منه بإبعاد.

وقبل ابن الجوزي بقليل كان الكيلاني ينادي:

(يا غلام؛ فقه اللسان بلا عمل القلب لا يخطيك إلى الحق خطوة. السير سير القلب) [2].

ومعناه الجماعي كذلك أيضًا، فإن مما يخشى على الدعوات أن تطيل لسانها، فتكثر تأليف الكتب، وتتخذ لها من الصحف ميدانًا، وتتعب درجات المنابر بخطبائها، وتترك تأليف الأرواح وتربية القلوب، فتقف لا تخطو نحو التمكين خطوة، كوقفة غلام الكيلاني.

وربما كان الضرر أبلغ من ذلك، فإن التعثر يبقى السير معه مستمرًا، والوقوف يحفظ الجماعة سالمة قائمة على الأقل، لكن تلبس الجماعة كلها بالرياء قد يدفعها في طريق الاضمحلال الذي شاهده التابع الربيع بن خثيم في أعمال الآحاد فقال:

(كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل) [3].

---

(1) صيد الخاطر/ ٣٥٥.

(2) الفتح الرباني/ ٢٩.

(3) طبقات ابن سعد ٦/ ١٨٦.

فرياء الجماعات ليس بغريب، بل شوهد في التاريخ الفكري والـسياسي مرارًا، متلبسا شكلا من التكلف للاصطلاحات، ومن التبني للاجتهـادات الشاذة التي ربما زل بها لسان الفقهـاء الأقـدمين والمحـدثين، أو منـدفعا في طريق التكاثر بالأعضاء على حساب النوعيات.

والظلام يزحف تدريجيًّا مع أشكال التراجع الـثلاث هـذه، فـإن العـاثر حين عثرته يكون رأسه أقرب إلى الأرض، ملتهيا بتخليص نفسه من هوية، فينقطع عن رؤية المنار حينا، والواقف يخدره السكون فتأتيـه سـنة أو نـوم، فيغتمص جفنه، وشأن المضمحل أوضح، وبذلك يتحقق كـون الريـاء مـن ظلمات الفتنة، وكون الإخلاص من أنوار الفطنة.

وبسبب ظلمتـه هـذه وصـف زاهـد الـصحابة شـداد بـن أوس رضي الله عنه الشهوة التي تقترن به بأنهاخفية، فإنه حين حضرته الوفاة وطلبوا منه وصية يودع خلالها خلاصة فقهه في العمل، قال:

(إن أخوف ما أخاف عليكم، الرياء، والشهوة الخفية) [1].

أي أنها تتسلل مستغلة ظلام الرياء.

ومع هذا فإن الاستدراك في هذا الباب بسيط جـدًّا، فقـد سـئل التـابعي طلحة بن مصرف عنه، فأرشد المرائي إلى أن يقول:

(اللهم اغفر لي ريائي وسمعتي).

هذا فقط من لسان ندم.

فاستغفر مما كان من رياء لا تعلمه من نفسك، الله يعلمه، وابدأ صـفحة جديدة بيضاء، ثم سلام عليك إذ تقتبس لأهلك قبسا من:

---

(1) زهد ابن المبارك/ ٣٩٣.

النور الثالث، وهو: قبول النصيحة وطلبها من الخبراء

وكان الحسن البصري ملحاحا في الحث على هذا الخلق، لهاجًا في تزيينه، حتى جعله ثلث العيش، فقال:

(لم يبق من العيش إلا ثلاث:

أخ لك تصيب من عشرته خيرًا، فإن زغت عن الطريق قومك.

وكفاف من عيش ليس لأحد عليك فيه تبعة.

وصلاة في جمع، تُكفى سهوها، وتستوجب أجرها) [1].

فزينة الحياة عنده، في جيل التابعين ذلك، كانت ترتفع عن الأرض وتتناقص، حتى لم يبق منها مما يرى إلا هذه الثلاث التي يتقدمها الأخ الناصح المقوم لاعوجاجك، فكم ثمن بقية الزينة هذه في يومنا هذا؟

ثم جعل الحسن التقدم بالنصيحة خصلة ضرورة للمؤمن الذي:

(هو مرآة أخيه، إن رأى منه ما لا يعجبه سدده وقومه ووجهه، وحاطه في السر والعلانية) [2].

فالعين تنظر منها ما دنا ونأى ولا ترى نفسها إلا بمرآة

وعند عمر بن العزيز هو من إحسان الصلات الإخوانية وواجباتها، وذاك قوله:

(من وصل أخاه بنصيحة له في دينه، ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسن صلته، وأدى واجب حقه) [3].

---

(1) تاريخ بغداد ٦/ ٩٩.

(2) زهد ابن المبارك/ ٢٣٢.

(3) تاريخ الطبري ٦/ ٥٧٢.

ومثل التقدم بالنصيحة، قبولها:

فالـصادق يفـرح بهـا، ولكـن (**وصـف الله تعـالى الكـاذبين ببغـضهم للناصحين، إذ قال: ولكن لا تحبون الناصحين**) [1].

وللناصح الحق في أن يسقط من عينه من يرد نصيحته، وأن يـستن بـسنة الشافعي التي بينها في قوله:

(**ما نصحت أحدًا فقبل مني إلا هبته واعتقدت مودته، ولا رد أحد عـلي النصح إلا سقط من عيني ورفضته**).

اتخذ صاحبا يحصي عليك

ولكن، إن عاش الشافعي حتى رأى من يرد نـصيحته، فـإن التـابعين في الجيل الذي قبله، كانوا يبادئون بالسؤال مبادأة، يرجون الإصلاح.

فعمر بن عبد العزيز كان يقول لمولاه مزاحم:

(**إن الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عينـي عـلى نفـسي، فـإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها، أو فعلًا لا تحبه، فعظني عنده، وانهني عنه**) [2].

وكان سيد تابعي الشام بلال بن سعد يقول لـصاحبه عبـد الـرحمن بـن يزيد:

(**بلغني أن المؤمن مرآة أخيه، فهل تستريب من أمري شيئا؟**)[3].

وأصرح منهما: ميمون بن مهران قدوة أهل الجزيرة، فإنـه عـرَض نفـسه على جمع من أصحابه وقال لهم:

---

(1) إحياء علوم الدين ٢/ ١٨٣.

(2) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ١٨.

(3) زهد ابن المبارك/ ٤٨٥.

(قولوا لي ما أكره في وجهي، لأن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره).

هذا فعل الصالحين.

هو.. أو السماح للعيوب بالتراكم.

ولداعية اليوم في فعلهم موعظة ونور وبلاغ، ولابد له أن يخرج من الفتن التي من حوله بأسئلة عمرية ميمونة، تبعث سمت الاتباع ذاك وتعيده حيًّا، فإنه لولا كبر واعتداد رأيناهما لعقل مقدمات الفتن المندرسة جيل من المغرورين كثير عددهم، بطحتهم لوجوههم تباعًا، وأخذتهم أخذة رابية، وكان من الممكن أن ينجوا منها لو أعطوا من أنفسهم أذنا صاغية، لكنهم كانوا قوما يصدون.

وذهبت فتنتهم، وثبت الأجر للثابتين، وبقي طريق العمل الواسع اللاحب، وبقيت أنوار الاستعاذة والإخلاص والتناصح، تقود المسالك إلى:

نور رابع وهاج، هو: تغليب نفسية التغافر

أوقده الزاهد ابن السماك واعظ هارون الرشيد لما (قال له صديقٌ: الميعاد بيني وبينك غدًا نتعاتب). كأنها كانت هفوة من ابن السماك أو زلة تعكر لها قلب صديقه.

فقال له ابن السماك -رحمه الله تعالى:

(بل بيني وبينك غدًا نتغافر).

وهو جواب يأخذ بمجامع القلوب، ملؤه فقه وواقعية، يشير إلى وجود قلب وراء هذا اللسان يلذعه واقع المسلمين، وتؤلمه أسباب تفرقهم.

وكذلك يكون استدراك الوازن لتسرع الحساس.

فلماذا التعاتب المكفهر بين الإخوان؟ كل منهم يطلب من صاحبه أن يكون معصومًا.

أليس التغافر أولى وأطهر وأبرد للقلب؟

أليس جمال الحياة أن تقول لأخيك كلما صافحته: رب اغفر لي ولأخي هذا، ثم تضمر في قلبك أنك قد غفرت له تقصيره تجاهك؟

أوَليس عبوس التعاتب تعكيرا تصطاد الفتن فيه كيف تشاء؟

بلى والله.

ولقد كان شاعر أسبق من دعاة يدعون الفقه، فراح يمرح ويتغنى...

من اليوم تعارفنا ونطوي ما جرى منا
فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا
وإن كان ولابد من العتب فبالحسنى

ثم يأبى إلا أن يزيد مرحه، فيبدل نغمته:

تعالوا بنا نطوي الحديث الذي جرى ولا سمع الواشي بذاك ولا درى
تعالوا بنا حتى نعود إلى الرضا وحتى كأن العهد لم يتغيرا
لقد طال شرح القال والقيل بيننا وما طال ذاك الشرح إلا ليقصرا
من اليوم تاريخ المحبة بيننا عفا الله عن ذاك العتاب الذي جرى

ثم يبدل نغمته ثالثة، ويتملق أصحابه ليديم محبة أخوية لذيذة قد ذاق طعمها الفريد، فيقول:

تعالوا نخل العتب عنا ونصطلح وعودوا بنا للوصل والعودُ أحمدُ

obeikandl.com

ولا تخـدشوا بالعتـــب وجـــه محبـة لـــــه بهجـــة أنوارهـــــا تتوقـــــد

فلا تخدش أيها الداعية، بالله عليك، وجه محبة منيرة لا زالـت فـذا فيهـا والناس من حولك تستهلكهم العداوات، وإلا وضعت نفسك عـلى شـفير الاستهلاك... إن التغافر خير.

* * *

obeikandl.com

11 شـــرط بشـــرط

دليل ماهر رفيق، عالم بديار آبائه وأجداده وشعابها، بينا هو يمشي معه سلاحه، في ليلة غياب القمر، بعيدًا عن العمران رأى تائها هائما في الظلام، لا يميز معاني مواقع النجوم، أيتركه يهيم بين يدي الذئاب؟ فكذلك الداعية المجرب الذي لقنه المحنكون أصول الدعوة، ينكسر قلبه شفقة ورحمة كلما رأى هائما في ظلمات الفتنة بين يدي أصحاب المطامع والأغراض فيُأمنه ويوصله أهله، ويؤنسه أثناء الطريق بدروس في مواقع النجوم وأبراج السماء ودلالتها على الجهات كي لا يضل ثانية، ويوصل غيره لو رآه تائها.

وأنوار الفطنة هذه هي الكواكب الدراري في سماء الدعوة، تزداد بريقا ولمعانًا كلما زاد الظلام لتزيل وحشة المنفرد وتهدي التائه الطريق.

عتاب بمقدمة تفسير وخاتمة ابتسام

وللتغافر الذي أصرَّ عليه ابن السماك وتنوعت له ألحان الشاعر أهمية خاصة كأهمية نجم قطب الشمال بين نجم السماء، فإن الكثير من حوادث نكوص الدعاة ترجع إلى فلتة لسان أو هفوة تعامل لم يغتفروها، والغفران منهم قريب. أو إلى ظن يتوهمون معه حصول تعد تجاههم أو تقصير، وتمحيص الأخبار أو طلب التعليل منهم أقرب.

ولو أنهم عتبوا بلسان خفيض من غير استفزاز لكان خيرًا لهم، ولوجدوا من يثني على طيبهم كثناء الشاعر على أصحابه، حين أسر عتبهم قلبه، فقال:

عتبتم فلم نعلم لطيب حديثكم أذلك عتب أم رضا وتودد

وأظهر من ذلك خيرًا لو قدم المستعتب بين يدي عتبه مقدمة تفسير، فيطمئن صاحبه أنها جلسة تصارح وتغافر، لا معركة تناحر، وأنه يريد أن يفرغ ما في صدره أمام كفؤ له وحبيب، ترويحا للقلوب، وقطعا لمحاولات الشيطان، لا التماسا لسبب هجر، ولا تفكيرًا باتهام.

ثم كم هي إيمانية هذه الجلسة، وكم روحانيتها لو ختما بخاتمة ابتسام، يقول معه لأخيه:

قد قضينا لبانة من عتاب وجميل تعاتب الأكفاء

ومع العتب والعتاب فإني حاضر الصفح واسع الإعفاء

فهو تعاتب أحباب، يؤتي لجماله، وإكرامًا للذي يتوجه إليه العتاب، ليس فيه نوع انتصار للنفس، وقبول العذر بعده يكون أدعى وآكد وأحرى بالتقديم.

فعذرك مبسوط لدينا مقدم وودك مقبول بأهل ومرحب

ولست بتقليب اللسان مصارما خليلي إذا ما القلب لم يتقلب

وهذا هو المهم.

المهم أن القلب لم يتقلب تقلبا دنيويا تحركه الأهواء، وإنما كان يعتقد ما تمليه مصالح الدعوة فيصيب ويأتي الخطأ، ولاجتهاده المصيب أجر بعد أجر، وأما الخطأ فينتظره تغافر بين الإخوان، وغفران من الله أكبر.

فإذا عرفت السالك يسر التغافر، وغلظة الظلام طمع واندفع نحو:

نور خامس شعاعه : التقوى في الغضب الهاجم

فلا يتكلم إلا حقا صدقا، إذ: **(يروي أن الفتنة لما وقعت قـال طلـق ابـن حبيب: اتقوها بالتقوى..)**

فهي دواء عام يوصف لكل أعراض الفتن، ولكن خصص بكر بن عبيد الله المزني مذهبين من مذاهب التقوى المتعددة لأصحاب الدرجات العالية، فقال:

(لا يكون الرجل تقيا حتى يكون تقي المطعم، وتقي الغضب) [1].

فالداعية المرتقي لا يكمل إلا بأن يكون غضبه لله، فـإن كـان وصـل إلى قمة أحمد بن حنبل، وشاركه في الفخر باعتلائها، فإنه كان:

(يغضب لله ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، فإذا كان في أمر من الدين اشتد غضبه حتى كأنه ليس هو)[2].

وإنما تتحقق هذه الصورة بإلجام اللسان، فلا يدعه حرًّا، وازنًا كل كلمـة يفوه بها، ألا يتهم بريئا أو يحـتج يظـن مجـرد أو يـستنجد بـسخرية وتنـابز، فيقطع المحسن إحسانه بسببه، ويعتزل العزيز.

وذو التجربة يعرف ما يكمن في الكـلام وطبـائع نبراتـه مـن إمكانـات الإصلاح والإفساد، فيتعود الحذر، ويدقق في وزن حروفه، إذ هاهنـا يظهـر الورع، فليس غير النادر الشاذ مـن النـاس يـستعمل يـده ورجلـه للـبطش والأذى، لكنه اللسان اللسان الذي أشار إليه عمر بن الخطاب فقال:

(لا يعجبنكم من الرجل طنطنتـه، ولكنـه مـن أدى الأمانـة وكـف عـن أعراض الناس فهو الرجل) [3].

---

(1) الغنية للشيخ عبد القادر الكيلاني ١/ ١٤٣.

(2) مناقب أحمد/ ٢١٨.

(٣) زهد ابن المبارك/ ٢٣٤.

طنطنة التفاخر والتفيقه، وأمانة الدعوة، وأعراض الدعاة العاملين.

ولذلك قال يونس بن عبيد:

(يعرف ورع الرجل في كلامه إذا تكلم).

واعتبر الشاعر الرد الخاطئ جناية، فقال يصف مجادلة:

أخطا ورد علي غير جوابي وجنى علي فقال غير صواب

وباللسان الطاهر سبق من سبق، وتقدم أبو بكر بدر بن المنذر المغازلي الزاهد صحبه بمراحل، فقال الإمام أحمد:

(من مثل بدر؟

بدر قد ملك لسانه) [1].

ملكه وسيطر عليه، وتصرف فيه كيف شاء الورع لا كيف ينطلق الهوى.

وسئل إبراهيم الخواص الزاهد عن الورع ما هو؟ فقال: **(ألا يتكلم العبد إلا بالحق، غضب أو رضي)** [2]. فجعله كل الورع.

لا يعني بذلك نفي صورة أخرى للورع، وإنما راعى حاجة السائل وطبيعة الظرف التي راعاها النبي ﷺ في حديث:

(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) [3].

فأنوار الورع وافرة، وامتلاك اللسان منها، ومنها أيضًا:

---

(1) تاريخ بغداد ٧/ ١٠٤، ٦/ ٨.

(2) المصدر ذاته والصفحة ذاتها.

(3) صحيح البخاري ١/ ١١.

نور سادس، مصدره: وزن المسلم بحسناته وأخطائه معًا

فنذكر لصاحب الهفوة المستفزة صوابه الذي قد يطغى عليها، ونرى للأمير المجتهد بذله وتاريخه وسابقاته المنتجة وعطاءه المستمر إذا خالفناه في مذاهبه.

والذي يتأمل الأعمال الجماعية يدرك أن معادن الرجال إنما تستبين في المواطن الحرجة التي تستدعي الفقه والقلب المؤمن، وبمواقفه فيها يرجح ميزانه إلى إحدى الكفتين: الجدارة أو الضعف. كمواطن الخلاف العارمة التي يطيش خلالها التعامل، والعذاب والمحن التي لا يصبر لها إلا مليء الهمة، ومواطن الإغراء وتسهيل كسب الأموال والمناصب التي لا يفضل الانغماس في أعمال الدعوة اليومية عليها إلا من يطل ببصره على جنان عريضة. أما الزلات العادية، واللمم، والحرف الغاضب، والنبرة المنفعلة، وكسل يومين، فلم يبرأ منها أحد، ولا يكاد.

والشريعة كلها قد بنيت على مراعاة هذا التكافؤ، واعتبار هذه القاعدة في الترجيح، ورب الناس يزن بهذا الميزان يوم القيامة، ولكن البعض ينسى.

فمن أراد إتقان أدب الإسلام في الجرح والتعديل عليه أن يعلم أن: (من قواعد الشرع، والحكمة أيضًا، أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر، فإنه يحتمل منه ما لا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره، فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل، فإنه لا يحتمل أدنى خبث.

ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر: **"وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"**. وهذا هو المانع له ﷺ من قتل من

جس عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم، فأخبر ﷺ أنه شهد بدرًا، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم، لكن منع من ترتب أثره عليه ما له من المشهد العظيم، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات.

ولما حض النبي ﷺ على الصدقة، فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة قال: ما ضر عثمان ما عمل بعدها)[1].

عائشة تطبق الميزان..

وكذلك حال حسان بن ثابت رضي الله عنه: قذف عائشة، وبقي حبه في نفس النبي ﷺ وأصحابه وأجيال المسلمين من بعدهم، للذي كان عليه من المنافحة بشعره عن رسول الله ﷺ، حتى أن عائشة ردت على ابن أختها عروة بن الزبير بن العوام لما سبه، وقالت:

(يا ابن أختي: دعه، فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ)[2].

وقريب من ذلك شهادة أخرى لعائشة في أمر زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها، فإنه كان بينهما ما يكون بين الضرائر، وكان في زينب من الطباع ما يؤخذ عليها، ولكن ذلك لم يمنع عائشة من إنصافها والثناء على فعالها الإيمانية، فقالت:

(هي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيرًا في الدين من زينب وأتقى لله -عز وجل- وأشد

(1) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ١٧٦.
(2) صحيح مسلم ٧/ ١٦٣.

ابتذالا لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به، ما عدا سورة من حدة كانت فيها، تسرع منها الفيئة) [1].

أي سريعة البرود بعد احتداد غضبها.

وقد وضعتنا عائشة رضي الله عنها هنا أمام نموذجين ينتقلان بنا إلى خطابين:

نموذج زينب، ونخاطب بمناسبته هؤلاء الدعاة من إخواننا الأحبة الذين نشهد لهم بالدين وصدق الحديث وابتذال أنفسهم في أعمال دعوة الإسلام، لماذا تلازمهم حتى الآن فورات الغضب وحدة الألفاظ ويغلقهم العناد المتحدي؟ أليس البحث الهادئ أولى؟ أوليس الاقتداء بزينب في الرجوع السريع أجمل؟

ونموذج عائشة نفسها، ونخاطب بمناسبته المتزمت المبالغ في تشدده، الذي يظلم إخوانه، فلا يعترف بفضل ذي فضل واسع إذا هفا، والذي يظلم الدعوة، فلا يدعها تنتفع بذي اختصاص مفيد خلط مع كفايته خصلة يعاب عليها.

إن سمت التشدد، وطلب الصفات المتكاملة، إنما يجب للقادة والمربين، وأما ما دون ذلك فإن العمل الإسلامي ينتفع من كل إمكانية خير مهما ضمرت وصغرت، ويدير في فلكه كل متعاطف مهما أقلته العيوب التي لا تعود بضرر على مجمل الدعاة.

وأولى لنا وأصوب أن نقتدي بعائشة رضي الله عنها في إنصافها، وبتلميذها سعيد ابن المسيب لما أسرع فهم طريقتها فأوجزها وصاغها بندًا في قانون الجرح والتعديل الإسلامي فقال:

---

(1) سنن النسائي ٧/ ٦٥.

(ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه: وهب نقصه لفضله).

والزم أخاك فإن كل أخ ترى فله مساوئ مرة ومحاسن

وابتسم بعد الامتعاضة من قول تسرع به أخوك فندم، وأطل ابتسامتك، فإننا نحب أن نراك بها، ونحب أن نسألك عنها، ونحب أن نسمعك تقول:

أتاني مقال من أخ فاغتفرته وإن كان فيما دونه وجه معتب

وذكرت نفسي عند امتعاضها محاسن تعفو الذنب عن كل مذنب

فما باله إن لم يكن ذنبا وكان مجرد تدلل وتمنع مما يكون بين الأقران حين تأخذهم نشوة الحمد على الهداية والإيمان إذ يرون أنفسهم –دون الناس– في المحل العقائدي الأعز الأرفع؟

أو: إذا طلبت الأجمل فاستر ولا تخبر، وتخلق بخلق الكرام، واكذب علينا وقل: ما ثم إلا خير ووفاء.

إن الكرام صحبتهم ستروا القبيح وأظهروا الحسنا

وانتظر التلافي، إن الحسنات يذهبن السيئات.

وما الناس إلا من مسيء ومحسن وكم من مسيء قد تلافى فأحسنا

والتلافي يقتضي التأني، ومنح الفرصة، وغمض جفن، لعل حياءه يغنيك عن لسانك، وعسى أن يرده حليب طاهر رضعه من قبل فيقبل.

أمنية، ولا سعد لها...

فإذا رسخ فيك خلق الإنصاف، ووزنت غيرك بصوابه كما تزنه بأخطائه كنت أهلا لأن يصارحك أميرك في أمر لعلك تنساه، كما صارح ذاك الخليفة القوى الحجة من الخلفاء المسلمين الأوائل جيل المسلمين الذي حكمه فقال:

(أنصفونا يا معشر الرعية؛ تريدون منا أن نسير فيكم سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر) [1].

ونقول لك كالذي قال:

أنصف أيها الداعية، وكن عادلا واقعيا، فإنك تريد من القادة إنجازا لعله الآن في مثل صعوبة فتوح أبو بكر وعمر، وأنت لا تهب دعوتك ما وهبه جند أبي بكر وعمر...!

تجمع الأموال، وتخشى الفقر، وتطيل سمرك مع زوجك، وتعطي الدعوة فضول الأوقات، ثم تريد أن ترى المعجزة.

كلا، كلا...

بل شرط بشرط.

من أراد أميرًا كأبي بكر... فليكن كخالد وكسعد.

رضي الله عنهم أجمعين.

---

(1) عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٩.

obeikandl.com

ثم ليس أبعد من ذلك، فإن سنة النبي ﷺ لم يطقها أبو بكر نفسه، بل قال:

(أيها الناس: لوددت أن هذا كفانيه غيري، ولئن أخذتموني بسنة نبيكم ﷺ ما أطيقها، إن كان لمعصومًا من الشيطان، وإن كان لينزل عليه الوحي من السماء) [1].

ولئن أخذنا القادة بسنة نبينا ﷺ ما يطبقونها، ولكن لنا عليهم الحرص كل الحرص على تحري الأصوب والأصلح، وبذل المجهود في تحري المنافع للمؤمنين.

* * *

(1) مسند أحمد، حديث رقم ٨٠ بسند حسن.

obeikandl.com

12 إنــه... دم الدعــوة

يعد تاريخ الصدر الأول من السلف الصالح من مصادر فقه الدعوة الرئيسة، فإنهم بأفعالهم وطريقتهم في الحياة كانوا أفصح من خلف ينطلق بقلمه لتدوين فقه الدعوة من تأمل نظري مجرد. وقد حددوا بسيرتهم ما يجب للداعية من صفات، وما يسوغ للدعوة أن تسلمه من أساليب ووسائل.

فبعضهم لم يتكلم بغير حديث رسول الله ﷺ إلا جملا يسيرة، ولكنه أرى الناس تطبيقا رائعًا للحديث وأفعالا شدتهم إلى الاقتداء.

وإنما يرجى لدعوة الإسلام النجاح اليوم إذا أدركت هذه الحقيقة القديمة، لا بشيء آخر، فتحرص على أن تنزل ساحة العلمانية كل جوال فعال صامت، يري الأرضيين من نفسه قوة، قبل أن يسمعهم من لسانه تفاصحًا.

ومحمد بن سيرين، التابعي البصري، قدوة من قدوات الصمت الناطق أولئك، وله مذهب في التجرد سماه صاحبه أبو قلابة الجرمي: امتلاك النفس، فقال يفاخر بابن سيرين جمعا من الدعاة:

(اصرفوه حيث شئتم، فلتجدنه أشدكم ورعًا، وأملككم لنفسه) [1].

فالداعية يملك نفسه، ومن ثم فهو الذي يخطط لها طريقها ومستقبلها، ولا يدعها تملكه، فإن من لم يملك نفسه يفقد حريته، وتكون هي المستعبدة

(1) تاريخ بغداد ٥/ ٣٣٤، ٣٧٠.

له، وإنما هذه دعوة الأحرار والأبرار، يتصدرها كل حر سريع الخطو، ومن رضي أن يكون مملوكا ويرسف في الأغلال والقيود فإنما يكون في آخر القافلة، أو تدعه وتمضي.

ومنذئذ أضيف إلى فقه الدعوة شرط جديد من شروط الدعاة يلزم المتصدي أن يملك نفسه كما ملكها ابن سيرين، وأن يحررها من القيود كما حررها ابن سيرين.

وقد قال ابن السماك من قبل:

(إن الرجاء حبل في قلبك، قيد في رجلك، فأخرج الرجاء من قلبك تحل القيد من رجلك) [1].

ويقصد بالرجاء: الأمل الدنيوي. فإنه يقيد الرجل عن الانطلاق في أعمال تتطلب التضحية وتضع إزهاق الروح واردًا في الاحتمال.

إنما ذلك الواهم فقط يغريه الأمل، أما الفطن فيدرك أنها قافلة ليست ككل قافلة، ويعلم أنها قافلة النور هو فيها، وأنها تسير في درب كله نور، قد توغلت فيه، فيحل قيود الطمع ويواكبها، ويلازم أهلها إذ يرفعون أبصارهم إلى هالة:

النور السابع، هو: الالتفات إلى عيب النفس

فينشغل الداعية بإصلاح عيوبه، ويدع إعابة الآخرين، وتسقط زلاتهم.

وكان السري السقطي البغدادي يتخوف خوفا عظيما من سريان مرض تتبع عيوب الناس إلى جماعة السالكين إلى الله، فكثر تحذيره منه، وصنع إحصاءات خلقية اجتماعية لبيان مدى تأثيره السيئ وإظهار تعدد أنواع

(1) تاريخ بغداد ٥/ ٣٣٤، ٣٧٠.

سلبياته، ووضع تقريرًا طويلا حفظت لنا منه كتب الزهد والرقائق فقـرات منه كثيرة، وأجمل في خاتمته نتيجة استقرائه فقال:

(ما رأيت شيئا أحبط للأعمال، ولا أفسد للقلـوب، ولا أسرع في هـلاك العبـد، ولا أدوم للأحـزان، ولا اقـرب للمقـت، ولا ألـزم لمحبـة الريـاء والعجب والرياسة من قلة معرفة العبد لنفسه، ونظره في عيوب الناس).

فهي سلبيات يعددها، كل منها يكفي لتعكير صفو السكينة الإيمانية.

وقد أشار في مقدمة تقريره إلى أن:

(من علامة الاسـتدراج للعبـد عـماه عـن عيبـه، واطلاعـه عـلى عيـوب الناس).

فجعل بدايته استدراجًا، أي تغريرًا من شيطان، يمنـي ضـحيته بوجـود بعض لذة في آخر طريق وعر بعيد ويغريها بنيلها، فتلج، فتنقطع، فينفرد بهـا بلا نصير أو ظهير، فيقهرها، كـما يقهـر الجـيش أعـداءه الـضعاف بإظهـار تراجع مفتعل يغريهم بالتوغل دون حساب خط رجعة.

ولما نودي على السري بعـد ذلـك للولـوغ في أعـراض النـاس وولـوج مجالس إحصاء عيوب الآخرين ناداهم بأعلى صوته:

(إن في النفس لشغلا عن الناس).

وإنها لصيحة حق، لهـا أن يـصرخها كـل دعـاة الإسـلام الآن، والخبـير بتلبيس إبليس يدرك مزالق هذا الباب جيدًا.

أسباب مرض الغمز وأعراضه

والذين رصدوا أسباب هذا المرض الخبيث يؤكدون أنـه ظـاهرة دفـاع عن النفس ليس إلا، فأصحاب العيوب يتوقعون نقدا لهم من ناصح أمـين

يظنونه مهاجمًا، فيتداعون إلى أخذ زمام المبادرة وتحويل الهجوم بهمز ولمز من وراء ظهر.

فـأجرأ مـن رأيـت بظهـر غيـب عـلى عيـب الرجـل ذو العيـوب

حتى باتت هذه الخصلة فاضحة لكل ذي لسان طويل، مغنية عن الفراسة، فقال السامع للمهذار:

(قد استدللت على كثرة عيوبك بما تكثر من عيب الناس، لأن الطالب للعيوب إنما يطلب بقدر ما فيه منها) [1].

ولذلك كان السلف عموما على أشد الخوف من هذا الخلق الرديء الذي قد يلبسه إبليس رداء النصح والأمر بالمعروف، وصاحب القلب الحي يميز هذا عن هذا بوضوح، لكنها الغفلة التي ابتأس لها التابعي عون ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود حين كان يساعد أخاه عبيد الله في تطبيق نظرية تأليف الأرواح، فقال:

(ما أحسب أحدًا تفرغ لعيب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه).

فالغفلة سبب ظاهر ولا شك، لولاها لاعتنى بملكه، ولشغله الغرس وجني الثمار.

أما أهم أعراض مرض الغمز فهو تواصي مرضاه بإخفاء مناقب الغير وفضح هفواتهم.

رآهم كذلك "النسَّابة البكري"، فقال لرؤبة بن العجاج:

(ما أعداء المروءة؟

قال: تخبرني.

---

(1) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ١٤.

قال: بنو عم السوء، إن رأوا حسنا ستروه، وإن رأوا سيئا أذاعوه)[1].

ورآهم الشاعر أيضًا، فتعجب من حالهم وكيف أنهم:

إن يسمعوا الخير: يخفوه، وإن سمعوا

شرًّا أذاعوه ، وإن لم يسمعوا كذبوا

ولا شر عند جماعة المؤمنين والحمد لله، لكن ذلك خلقهم دائما؛ لا يعجبهم ما عليه المؤمنون من الخير، فإن حدثت هفوة يعلمون ما وراءها من نية صادقة طبلوا وزمروا.

ومن أعراض هذا المرض أيضًا: التهويل والمبالغة، واستعمال العدسة المكبرة للتفتيش عن صغائر الغير.

ذكر أبو هريرة رضي الله عنه ذلك عنهم، فقال لهم:

(يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه، وينسى الجذع في عين نفسه!!)[2].

ثم رأى الشاعر منهم معاندا يأبى الإنصاف، فجدد له قول أبي هريرة، ووبخه، وقال له:

وتعذر نفسك إما أسأت وغيرك بالعذر لا تعذر!

وتبصر في العين منه القذى وفي عينك الجذع لا تبصر!

علاج الهمز برقابة القريب

ولكن ما جعل الله من داء إلا وجعل له من الأدوية ما يذهب به.

وكأي مرض نفاقي آخر، فإن الهمز يداوى أول ما يداوى بتذكر رقابة الله، فإنه الدواء العام الخاص، فيعلم أن الله من قلبه قريب، وعلى لسانه

(1) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ١٦٨.

(2) فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد للبخاري ٢/ ٤٨.

رقيب، ويسكت تائبا، ويعزف عن صاحبه لو أتاه من الغد يدعوه إلى جلسة غيبة، ويشرح أمره، ويحدثه عن النور الذي أناره الله في قلبه فأضاء زاوية كانت فيه مظلمة، ويقول له:

يمنعني من عيب غيري الذي ... أعرفه عندي من العيب

عيبي لهم بالظن مني لهم ... ولست من عيبي في ريب

إن كان عيبي غاب عنهم فقد ... أحصى ذنوبي عالم الغيب[1]

ويقول صريحة لصاحبه، ويهدده محذرًا:

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا ... فيكشف الله سترا عن مساويكا

واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ... ولا تعب أحدًا منهم بما فيكا[2]

فإن لم يصغ له: تركه، ومضى في طريق الأنوار، يبدد ما قد يكون هنالك من بقايا الظلام بنور النصح مع الله الذي أوقده له زين العابدين علي ابن الحسين بن علي ﷺ لما قال:

(إذا نصح العبد لله -تعالى- في سره أطلعه الله -تعالى- على مساوي عمله، فتشاغل بذنوبه عن معايب الناس).

فزين العابدين يجعل معرفة المسلم بعيوبه منحة ربانية، وإنها لكذلك والله.

فإذا قرن التائب سكوته ونصحه لله بدعاء يتضرع فيه كما نوره السابع.

ويستحب له هنا أن يكون خلف عبد الوهاب عزام، يردد مناجاته ربه:

إن في النفس بغضة لأناس ... أصلحني وحببهم إليا

---

(1) تاريخ بغداد ١٠/ ٨٣.

(2) عيون الأخبار ٢/ ١٨.

واغسل الحقد والهوى من فـؤادي واجعلنـي لكـل حـق وليـا[1]

يقول آمين، وينطلق من فوره بعد ذاك لإتمام أنواره، ويندفع نحو ومضات:

النور الثامن، وهو: صون الأذن عن استماع الغمز

فيدعها في عافية من بعد ما عافى لسانه من تتبع زلات الناس وانتبه لعيوب نفسه، إذ:

(ليس من جارحة أشد ضررا على العبد –بعد لسانه– من سمعه، لأنه أسرع رسول إلى القلب، وأقرب وقوعًا في الفتنة).

فسمعك صُن عن قبيح الكلام كصون اللسان عن النطق به
فإنك عند استماع القبيح شريك لقائله فانتبه[2]

وهذا ما يستدعيه التعجل الإيماني المستحب للسائر في طريق الأنوار، فإن استماعه للهماز يضيع عليه وقته الثمين إن لم يضره، ويفوت عليه الالتذاذ بمنظر شروق:

النور التاسع، الساطع ببريق: المسارة في نصيحة القادة

فلما لم يعط النبي ﷺ جعيل بن سراقة الضمري رضي الله عنه شيئا من المال، وهو المهاجر المجاهد، وأعطى من هو دونه، وظنها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إهمالا لجعيل، وأراد توثيقه قام النبي ﷺ مقترحًا:

قال سعد:

---

(1) ديوان المثاني / ٩٧.
(2) أدب الدنيا والدين/ ٢٥٧.

(فساررته قلت: مالك عن فلان، والله إني لأراه مؤمنًا؟ قال: أو مسلمًا) [1].

فذكر ابن حجر أن هذا الحديث يتضمن من الفقه:

(أن الإسرار بالنصيحة أولى من الإعلان).

قال:

(وقد يتعين إذا جر الإعلان إلى مفسدة) [2].

ولما طلبوا من أسامة بن زيد رضي الله عنه أن يكلم بعض الأمراء حول أمر ضجروه منه، قال:

(إنكم لترون أني لا أكلمه؟

إلا أسمعكم أني أكلمه في السر دون أن أفتح بابا لا أكون أول من فتحه؟) [3].

فأخبرهم أنه لم يغفل عن ذلك، وأنه كلمه، ولكن في السر، خوفا أن يستغل أهل الأهواء كلامه، فيتخذونه ذريعة إلى الفتن والمفاسد.

فلهذا يسمى هذا النور: نور أسامة، وما زال يتولى إيقاده من دعاة اليوم كل أسامة.

لا تعن سفاكًا!!

ويصور لنا أبو معبد عبد الله بن عكيم الجهني، وهو أحد قدماء التابعين المخضرمين الثقات ممن أدرك رمن النبي ﷺ ولم يره، مبلغ أساه وندمه وحسرته على كلمات تفوه بها زمن عثمان رضي الله عنه نصحه بهن جهارًا، يظن أن

(1) صحيح البخاري ٢/ ١٤٧.
(2) فتح الباري طبعة البابي ١/ ٨٨.
(3) صحيح البخاري ٤/ ١٤٧.

obeikandl.com

فيه مساوئ، وحاشا الراشد الثالث من المساوئ فتلقف كلماته أصحاب الأغراض، واستباحوا دمه الشريف بهن وأمثالهن.

وراموا دم الإسلام لا من جهالة ولا خطأ، بل حاولوه على عمد

ففي حلقة دراسية انعقدت في المدينة لتدريب وتفقيه الجيل الجديد من رجال دولة الإسلام المكلف باستدراك ما صنعته الفتنة حاضر عبد الله بن عكيم، وطفق يلخص لهم تجارب المخلصين فقال:

(لا أعين على دم خليفة أبدًا بعد عثمان).

وكانت كلمة مثيرة منه حقا.

وتأخذ الجميع إطراقة، فما ثم إلا عيون تتبادل النظر مستغربة ما يقوله الرجل الصالح.

ما لهذا الشيخ البريء المؤمن الذي لم يرفع في وجه عثمان سيفا أبدًا يتهم نفسه ويلومها على ما لم يفعل؟

وينبري جريء لسؤاله:

(يا أبا معبد: أوأعنت على دمه)؟

فيقول:

(إني لأرى ذكر مساوئ الرجل عونا على دمه)[1].

فهو يتهم نفسه بجزء من دم عثمان لأنه رأى بأم عينه كيف أن ما ظنه وقام في نفسه من أنه الحق قد أدى إلى استغلال الرعاع له حين يتكلم به، وكيف طوروه حتى قتلوا عثمان رضي الله عنه.

(1) رواه البخاري في تاريخه الكبير جـ١/ ق١/ ٣٢ بسند صحيح، وابن سعد في الطبقات ٣/ ٨٠.

إنها حساسية النفس الصادقة في توبتها ينطق بها ابن عكيم، مع أنه ما كان يكره عثمان حين تفوه بتلك الكلمات، فإن ابنه يقول:

(كان أبي يحب عثمان) [1].

وهذا يقتضي أنه قال كلماته الناقدة بلهجة المحب وما فيها من الرفق واللين، ومع ذلك نتج عنها من المفاسد ما نتج، فكيف لو انضاف إلى علانية النقد لفظ رديء، وعبرت عنه لهجة عنيفة؟

إن الجيل الجديد من رجال دعوة الإسلام الحديث-إذ هو يتفقه اليوم في حلقاته الدراسية لاستدراك ما صنعته فتن الأمس-مدعو إلى ملاحظة المغزى العظيم المهم لقصة عبد الله بن عكيم، وتجربته الصادقة.

لا تكن ساذجًا أيها الداعية، فإنها تحريشات من حولك لسفك دم الدعوة.

احذر، والتفت إلى عيب نفسك، وصن سمعك وسارر بنصيحتك ونقدك، ولا تعن بلسانك.

إنه دم الدعوة.

* * *

(1) تهذيب التهذيب ٥/ ٣٢٤.

obeikandl.com